الشباب والكهول والشيوخ، فما باله لم يختر إلا خالدًا؟ خلُّوا بيني وبين الشيخ، فلئن لقيته لأغيرنَّ من رأيه، فإن لم أستطع فسأعصي أمره مجاهرة له بالعصيان؛ أفتظنون أنِّي أخاف الشيخ أو أفرق منه؟! لقد رأيته صبيًا يدرج، ولقد لاعبته وداعبته قبل أن يبلغ العاشرة من عمره؛ اتخذوه لكم شيخًا؛ فأمَّا شيخي أنا فقد مات، ولو كان حيًّا ما فَرَّقَ بيني وبين ابنتي.

وكان زوجها يُحاول إرضاءها عن اختيار الشيخ، يلطف لها حينًا ويعنف بها حينًا آخر، فلا يبلغ منها شيئًا. فلمَّا ارتفع الضُّحى، أقبلت إلى ابنتها ثائرة تُريد أن تنتقل إليها الثورة، عصيَّة تريد أن تحملها على العصيان، ولكنها تحدثت وتحدثت إلى ابنتها، فلم تر فيها ميلًا إلى الثورة، ولا استعدادًا للعصيان، فلما سألتها مغيظة عن رأيها، قالت «مُنى» في صوت هادئ مضطرب بعض الشيء: ومتى كان لي في مثل ذلك رأي؟! إنما الرأي لخالد، فأنا مُقيمة إن أقام، ومُرتحلة إن ارتحل، هنالك تحولت ثورة الأم فجأة إلى حُزنٍ عميق، فانحازت إلى زاوية من زوايا الحجرة التي كانت تتحدث فيها إلى ابنتها، وأغرقت في بكاء صامت مُتَّصل.

ولو كُشِفَ للناس عما كان في قلبها إذ ذاك لرأوا فيه شيئًا من خيبة الأمل والاستعداد للإذعان؛ فقد رأت من زوجها إصرارًا، ومن ابنتها إيثارًا لطاعة الزوج، وماذا تستطيع أن تصنع وحدها أمام هذه القوى التي تكاثرت وتظاهرت لا تُريد إلا أن تُفرِّق بينها وبين ابنتها؛ ومتى لقيت من الحياة خيرًا؟! أما زوجها فمشغول بشيخه وتجارته، وأما بناتها فلا تكاد إحداهن تتزوج حتى تَنسى كل شيء وكل إنسان إلا زوجها وبنيها، وماذا تُنكر عليهن وهنَّ لا يزدن على أن يسرن سيرتها! فقد نسيت هي دارها وأمها منذ زُفت إلى الحاج مسعود؛ فلِمَ لا تنسى «مُنى» دارها وأمها منذ زفت إلى خالد، ثم تنجم في قلبها الساذج عاطفة مُؤلمة تُشبه الغيرة وما هي بالغيرة؛ فهي لم تلد لزوجها إلا بنات، وهؤلاء بناتها يلدن لأزواجهن البنين، فهن أحسن منها حظًّا، وأعظم منها نصيبًا من الخير، وآثر منها عند أزواجهن، ولو أنها ولدت للحاج مسعود غُلامًا أو غلامين لكانت له معها سيرة غير سيرته هذه، ثم تلوم البائسة نفسها على ما ساورها من سوء الظن بزوجها، وهو الذي لم يقدِّم إليها إلا خيرًا وبرًّا، وهو الذي لم يفكر في أن يدخل عليها ضرة لعلها تلد له غلامًا، بل هو الذي لامها أشدَّ اللوم وعنفها أشد التعنيف وأنذرها بأنه سيشكوها إلى الشيخ حين ألحت عليه منذ سنتين في أن يتخذ زوجًا ثانية لعلها تلد غلامًا، فما ينبغي أن يئول أمر هذه الدار إلى البنات وأزواجهن من الغرباء، وكانت جادة في هذا الإلحاح،